الفصل الأول
العرض الجغرافى لبلاد ما وراء النهر

المبحث الأول: العرض الجغرافى التفصيلى لبلاد ما وراء النهر:

- تمهيد.
- مفهوم بلاد ما وراء النهر.

(١) إقليم الصُغد

أ- بُخارَى. ب- سمر قند.

ج- كِش. د- نسَف (نَخشَب).

(٢) إقليم خُوَارِزْم

أ- كاث. ب- زَمَخْشَر. ج- هَزَارَ أَسْبُ

(٣) إقليم طَخَارِسْتانَ

أ- بَذَخْشانَ. ب- الخُتَّل. ج- التَرمْذ.

(٤) إقليم فَرْغانَة

أ- فَرْغانَة. ب- خُجِنْده. ج- أُوْش.

(٥) إقليم أَشْروسَنَة

أ- بُو مْجِكث. ب- زامَين. ج- سَابَاط

(٦) إقليم الشاش

أ- بِنْكث. ب- أَسَفِيجَاب. ج- فاراب.

المبحث الثانى: الأنهار الرئيسة فى بلاد ما وراء النهر:

أ- نهر جَيحْوَن.

ب- نهر سَيحْون.

المبحث الأول: العرض الجغرافى التفصيلى لبلاد ما وراء النهر

- تمهيد:

لا يخفى على دارسى التاريخ أهمية دراسة الجغرافيا عامة، وجغرافية الإقليم المطروح للدراسة خاصة. وذلك لأن الجغرافيا - كما يقول الدكتور جمال حمدان - «قد تكون صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها، فالتاريخ ظل الإنسان على الأرض. كما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان فالتاريخ - كما عبر البعض - ما هو إلا جغرافية متحركة، بينما الجغرافيا تاريخ توقف[1].

ولا يتصور - مطلقا - فهم الإنسان، بدون دراسة البيئة الجغرافية التى نشأ وتربى فيها، إذ لا يخفى - على أحدٍ - أن أثر البيئة كبير على الإنسان، أو كما يقول الأستاذ «هنرى بر» Henry Berr المشرف على صدور الموسوعة التاريخية الكبرى «تطور الإنسانية». فى تقديمه للمجلد الرابع منها، وعنوانه: «الأرض والتطور البشرى». يقول: «لا ريب أن أثر البيئة قوى جدا على الإنسان؛ فالجفاف، والرطوبة، والرياح، والضوء، والحرارة بل وكهرباء الجو تستطيع أن تُعدل من صفات الكائن الحى تعديلا دائما، أو مؤقتا. سواء كان هذا الكائن حيوانا أو نباتا. إن البيئة - بلا شك - تركت أثرها القوى فى تكوين الإنسان خلقا وتفننا»[2].

---

(١) د جمال حمدان: شخصية مصر، ص٧-٨.

(٢) نقلا عن د. أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى، ص٩. ولمزيد من التفاصيل عن أثر البيئة فى الإنسان، انظر عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق د. على عبد الواحد وافى، جـ١، ص٣٩٢ وما بعدها.

وإذا كان للبيئة كل هذا التأثير على الإنسان، فحرى بنا دراستها، كمدخل للدراسة السياسية أولا والاقتصادية ثانيا.

مفهوم بلاد ما وراء النهر:

أطلق الجغرافيون العرب على المناطق الخصبة السهلة الواقعة بين نهرى سَيحْون – سِيْر دِرْيَا حاليا– Sir Darya – وجَيحْوَن – أَمُّوْ دِرْيَا حاليًا Amu Darya– اللذين يصبان فى بحر خوارزم – آرال حاليًا – والشاطئ الأيسر لنهر سيحون، ويشمل طخارستان، والختل، هذه البلاد أطلق عليها المسلمون – قديما– بلاد ما وراء النهر[٣].

يصف المقدسى البشارى (ت٣٩٠هـ/١٠٠٠م) هذا الإقليم بقوله: هو أجل الأقاليم، وأكثرها أجلة وعلماء و(هو) معدن الخير، ومستقر العلم؛ وركن الإسلام المحكم، وحصنه الأعظم؛ ملكه خير الملوك، وجنده خير الجنود. فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك... ترى به رساتيق[٤] جليلة، وقرى نفيسة، وأشجارا ملتفة، وأنهارا جارية، ونعمًا ظاهرة. ونواحى واسعة، ودينا مستقيما[٥].

ولا يتبادر إلى أذهاننا أن بلاد ما وراء النهر – بعد هذا الوصف الرائع من المقدسى – كانت تكون وحدة جغرافية واحدة، بل على العكس، فقد قامت فى هذه المنطقة عدة ممالك مستقلة عن بعضها البعض[٦]. وهذه الممالك منها ما يقع على نهر جيحون وهى: مملكة طخارستان، ومملكة

(٣) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص١٤٥.

(٤)الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى وهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد. ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص٤٠.

(٥) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص٣٦٠.

(٦) د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص٣٣٨ – ٣٣٩. و د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى، جـ٨ ، ص٥٨٢.

الختل، ومملكة صغانيان. ومنها ما يقع بين نهرى جيحون وسيحون وهى: مملكة الصغد (بخارى وسمرقند)، ومملكة خوارزم. ومنها ما يقع خلف نهر سيحون وهى: مملكة فرغانة، ومملكة أشروسنة، ومملكة الشاش وإيلاق.

وعلى ذلك، فيمكننى تقسيم بلاد ما وراء النهر إلى ستة أقاليم وهى:

(١) إقليم الصغد: وهو (صغديانا القديمة) عاصمته بخارى وسمرقند.

(٢) إقليم خوارزم: فى غرب الصغد، وهو الإقليم المعروف اليوم بـ(خيوه). ويشتمل على دلتا نهر جيحون.

(٣) إقليم طخارستان: فى الجنوب الشرقى ومعه الصغانيان، والختل وغيرهما من الكور التى تقع فى أعالى جيحون، وإليه أيضًا تعود (بذخشان). وإن وقعت فى ضفته اليسرى، أى الجنوبية، فإن المنعطف الكبير للنهر فيما وراء طخارستان يكاد يطوقها.

(٤) إقليم فرغانة: فى أعلى نهر سيحون.

(٥) إقليم أشروسنة: فى أعلى نهر سيحون كذلك.

(٦) إقليم الشاش: وهو اليوم إقليم (طشقند)، مع النواحى التى فى الشمال الغربى الممتدة حتى مصب نهر سيحون فى بحر آرال (بحيرة خوارزم).

ولما كان من الصعب علىّ فى هذا العرض الجغرافى – ذكر بلاد ما وراء النهر بالتفصيل، لذلك فسوف أقتصر على ذكر أهم هذه البلدان. ولنبدأ بالأقاليم الواقعة بين جيحون وسيحون وأهمها:

أولا: إقليم الصُغد:

يشمل هذا الإقليم الأرض الخصبة الواقعة فيما بين نهرى جيحون وسيحون، وهو عبارة عن قرى متصلة، خلال الأشجار والبساتين. وهذا

الإقليم «من أطيب أرض الله، كثيرة الأشجار غزيرة الأنهار»[٧]. وتبلغ مساحة الصغد[٨] ستة وثلاثون فرسخا[٩] فى ستة وأربعين فرسخا. وأجل مدن الصغد: بخارى وسمرقند، ويمكن القول: إن سمرقند كانت مركزه السياسى؛ بينما كانت بخارى عاصمته الدينية، ومع ذلك فالمدينتان كانتا فى مرتبة واحدة.

والآن نتعرف على بخارى؛ وأهم المدن التابعة لها. ثم نثنى القول على سمرقند وأهم مدنها، ثم نأتى إلى باقى المدن الأخرى.

(أ) بُخارى:

مدينة تقع فى واحة جميلة يمر بها نهر زرافشان[١٠] أحد روافد نهر جيحون. ويقدم لنا العالم الجغرافى الرحالة الإصطخرى (ت٣٤٠هـ/٩٥١م) وصفا رائعا لهذه المدينة فيقول: «وأما نزهة ما وراء النهر فإن لم أر، ولا بلغنى فى الإسلام بلدا أحسن خارجا من بخارى، لأنك إذا علوت قهندزها [قلعتها] لم يقع بصرك من جميع النواحى إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء، وليس بما وراء النهر وخراسان بلدٌ أحسن قيامًا بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى؛ ولا أكثر عددا على قدرها فى المساحة منهم. وذلك مخصوص بهذه البلاد»[١١].

---

(٧) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٦٥.

(٨) القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٤٤.

(٩) الفرسخ: يقدر بنحو اثنى عشر ألف ذراع، وهو يساوى ثلاثة أميال، ويقدر حاليا بنحو ٥٥٤٤ مترا، انظر ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص٤، ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٣٩. د. محمد ضياء الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص٢٩٠ – ٣٠٠.

(١٠) نهر زرافشان: معناه ناثر الذهب، وهو رافد هام من روافد نهر جيحون، فامبرى: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ص٣٣.

(١١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٦٤.

ويضيف القزوينى فيقول: «بخارى مدينة عظيمة مشهورة بما وراء النهر، قديمة طيبة لم أر ولا بلغنى أن فى جميع بلاد الإسلام مدينة أحسن خارجا من بخارى؛ هى بلاد الصغد أحد متنزهات الدنيا»[١٢].

وعلى ذلك، فقد كانت بخارى مدينة عظيمة، تمتاز بقصورها العالية. وجناتها المتدانية. وقراها متصلة العمارة، تصل مساحتها إلى سبعة وثلاثين ميلا فى مثلها[١٣]. ويتفق كل من صاحب «معجم البلدان»[١٤] و«صبح الأعشى»[١٥] إلى أن بخارى كانت: «أم الأقاليم، ويم التقاسيم، ومستقر الحكم... وكانت كل الممالك تبعًا لها».

نشأة بخارى:

أما عن نشأة المدينة، فهى كسائر المدن القديمة الأخرى، يكتنفها الغموض، ويحيط ببنائها اللبس، وتختلط الحقيقة بالأسطورة، وأقدم وصف ورد إلينا عن بناء المدينة ندين به للنرشخى، ونلخصه فيما يلى:

إن هذا الموضع - المعروف اليوم ببخارى - كان يتكون من بركة ومروج كثيرة، وفى بعض أجزائه كان لا يوجد مخاضة للإنسان أو الحيوان، وذلك لأن الثلوج كانت تذوب على الجبال بالولايات التى بناحية سمرقند، فيجتمع الماء هنالك. وكان هذا الماء - دائما - يحمل الطمى. ثم توقف جريان هذا الماء بعد فترة من الزمن. ثم طمرُ هذا الموضع الذى يقال له «بخارى» وتمهدت الأرض، واجتمع الناس من كل صوب. وازدهر ذلك المكان بمرور الوقت، فأعجب الناس به، وأقاموا فيها.

(١٢) القزوينى: آثار البلاد، ص٥٠٩.
(١٣) مجهول: البلدان، مخطوط، ورقة، ص٨٣.
(١٤) ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص٢٨٠.
(١٥) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ص٤٣٤.

وكانوا أول الأمر يعيشون ويقيمون فى الخيام والسرادقات، ثم تجمعوا وتكاثروا على مر العصور وبنوا العمائر، ثم نصبوا أميرا عليهم[١٦]».

يتضح لنا من هذه القصة: أن مدينة بخارى قد أنشئت قبل الإسلام بقرون عدة فى موضع المدينة الحالى. وأما عن اسمها، فقد اشتق من كلمة «بُخر»؛ وهى صيغة تركية مغولية للكلمة السنسكريتية «فهاره»[١٧]. ومعناها صومعة أو دير. وذلك لأن البوذيين كان لهم معبد فى بخارى، أو على مقربة منه فى سمرقند.

مناخ بخارى:

أما عن مناخ المدينة، فهى تتميز دون سائر مدن ما وراء النهر بهوائها الجاف المتقلب وذلك لقربها من المناطق الجبلية شتاؤها طويل بارد؛ وربيعها ممطر، وصيفها حار جاف، وخريفها يتميز بالنشاط. والمناطق الرملية المحيطة بها ذات هواء ساخن وشتاء قصير[١٨]. ويعتبر الجزء الشمالى منها أخصب بقاعها لاحتوائه على وادى خصب يؤدى إلى سمرقند.

وصف المدينة:

اسم بخارى القديم هو «بُومِجْكَت»[١٩]: وهى مدينة على أرض مستوية، وبناؤها من الخشب المشبك. وتحيط بها القصور والبساتين

(١٦) النرشخى: تاريخ بخارى، ص١٨-٢٠.

(١٧) دائرة المعارف الإسلامية، «مادة بخارى»، م٦، جـ٤٥، ص٣٤٦- ٣٤٧.

(١٨) د. خالد عزب: بخارى الشريفة - تاريخها وتراثها الحضارى، ص٩٠٨.

(١٩) أوردها (بالتاء) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٩٧، والإصطخرى: المسالك، ص١٧٦. بينما وردت (بالثاء) عند السمعانى: الأنساب، جـ١، ص٣٩٨، جـ٥، ص٦٩٥، وياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٣٨٩.

والمحـــال والطرق المبلطة والقرى المتصلة. ويحيط بها ســـور واحد ضخم يبلغ طوله اثنا عشـــر فرسخا فى مثلها، ثم سور داخلى يبلغ طوله نحو فرسخ فى مثله. وهذا السور الحصين داخله القلعة.

وللمدينة سبعة أبواب وهى: باب المدينة الرئيسى، وباب نور، وباب حقره، وباب الحديد، وباب القلعة (القهندز)، وباب مهر، وباب بنى أسد[٢٠]. كما كان للمدينة كثير من الدروب.

ومن الجدير بالذكر: أن المدينة قد أحيطت ببوابات من حديد بلغ طول وعرض كل منها أربعة أمتار. وعلت جانبيها الأيمن والأيسر أبراج هائلة. وكانت هذه البوابات تقفل مساء كل ليلة بأقفال ضخمة. ثم تؤخذ المفاتيح إلى القلعة لتحفظ حتى الصباح[٢١] وبخارى حاليًا تقع على المجرى الأسفل لنهر زرافشان، وهى ترتفع عن سطح البحر بنحو (٧٢٢) قدمًا، أى حوالى (٢٢٢,٤مترًا). وهى جزء من جمهورية أوزبكستان[٢٢] التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى - سابقًا - فى ٢٧ أكتوبر ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ). وعاصمتها طشقند.

مدن بخارى:

تضم بخارى كثيرًا من المدن والقرى، نكتفى بذكر خمسة فقط منها، وهى:

(١) الطوَاويَس: أعظم مدن بخارى، وهى مدينة جليلة، ومجمع عظيم ينتابه الناس من أقطار ما وراء النهر. وقد ذكر النرشخى إن

(٢٠) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩٨.

(٢١) فيتالى تومكين: بخارى، ص٢١.

(٢٢) د. محمود أبو العلا: المسلمون فى الاتحاد السوفيتي، ص٦٠- ٦١، وملف الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات، ص٢٢٨ وما بعدها.

اسم المدينة القديم (أرقود)[٢٣]. وكان يسكن بها قوم منعمون مترفون. فى بيت كل منهم طاووس – من باب الترف – وعندما دخلها العرب سموا تلك القرية بذات الطواويس، ثم زال اسمها الأصلى وحذفوا كلمة «ذات». ومن ثم عرفت المدينة بالطواويس والمدينة كثيرة البساتين، خصبة الأرض، لها قلعة داخل المدينة وبها مسجد جامع.

(٢) كَرْمِيَنِية: بلدة من نواحى بخارى، كثيرة الأشجار والماء، وهى تقع بين بخارى وسمرقند، بينها وبين بخارى ثمانية عشر فرسخًا. وهى أكبر من الطواويس، وأعمر، وأكثر عددًا وأخصب[٢٤]. ويؤكد النرشخى على أن اسم المدينة القديم هو «بادية خردك»[٢٥]. غير أنه لم يمدنا بمعلومات تفيدنا فى معرفة تطور هذا الاسم.

(٣) بِيَكَنْد: مدينة جميلة تقع على جبل قليل الارتفاع، تبعد عن بخارى بأربعة عشر فرسخًا. وهى ثغر من ثغور المسلمين، فيوجد بها أكثر من ألف رباط. يقول الإصطخرى: «... غير أن بها من الرباطات ما لا أعلم فى بلدان ما وراء النهر أكثر عددًا منها»[٢٦]. وقد تميزت المدينة بكثرة المزارع، واتساع العمران. وكان لها سور حصين يحيط بها للدفاع عنها ضد الأعداء. وكان بها مسجد جامع، ليس بما وراء النهر محراب أحسن زخرفة منه.

أما معنى (بيكند) فإن فامبرى يذكر أن معناها مدينة الأمير[٢٧]. وقد زارها السمعانى بعد أن خربت وقال عنها: «وقد رأيت آثارها والأطلال

(٢٣) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٢٧– ٢٨.

(٢٤) مجهول: (كتبه عام ٣٧٢هـ): حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ص٨٤. ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص١٣٤.

(٢٥) النرشخى: المصدر السابق، ص٢٧.

(٢٦) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٧٥.

(٢٧) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٤٥.

المندرسة بها»[٢٨]. ومن الجدير بالذكر: أن أهل بيكند كانوا يفخرون بها. فإذا ذهب الواحد منهم إلى بغداد وسُئل من أين أنت؟ قال: من بيكند. ولا يقول من بخارى.

(٤) مَغْكَان: بلدة تقع على بعد خمسة فراسخ من بخارى، عن يمين الطريق إلى بيكند، بينها وبين الطريق نحو ثلاثة فراسخ[٢٩]. كان لها حصن، وجامع به ماء جار، وهى قرية عامرة ذات زروع وفواكه.

(٥) فَرَبْرُ: مدينة تقع بين نهر جيحون وبخارى، بينها وبين النهر فرسخًا، خصبة الأرض، ولها قرى تابعة لها جميعها عامرة، والمدينة مشهورة بفاخر المطاعم والمآكل اللذيذة الطيبة. وكان بها مسجد جامع كبير[٣٠]، بنيت جدرانه وسقفه من الآجر. ولا يوجد فيه خشب قط، وذلك لقربها من النهر، وكان للمدينة أمير وقاض خاص بها. وقد زارها السمعانى[٣١] وأقام بها أيامًا فى أثناء انصرافه من بلاد ما وراء النهر.

ولا أستطيع أن أذكر قرى بخارى بالتفصيل[٣٢] ونكتفى بذلك وأنتقل إلى سمرقند.

(ب) سمرقند:

المدينة الثانية فى إقليم الصغد، وتقع هذه المدينة على نهر زرافشان – رافد نهر جيحون – وسمرقند مدينة إسلامية تضرب بجذورها فى

(٢٨) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص٤٣٤.
(٢٩) كى لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٥.
(٣٠) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٠٣. ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص٤٢٢.
(٣١) السمعانى: الأنساب، جـ٤، ص٣٥٩.
(٣٢) ذكر المقدسى أن عدد قرى بخارى نحو ستة عشر ألف قرية. أحسن التقاسيم، ص٢٦٨. وإن كنت أرى أن كلمة (ألف) زائدة أو كتبت سهوًا لأن جميع المصادر التى بين أيدينا لم تذكر هذا العدد من القرى.

التاريخ. فهى تبعد عن بخارى بنحو مائة وخمسين ميلاً[٣٣] وتقوم على مسافة قصيرة من الضفة الجنوبية لنهر الصغد على مكان مرتفع قليلاً من الأرض.

هذا، وقد تغنى الرحالة المسلمون وأبدعوا فى وصف سمرقند بل وفضلوها على سائر بقاع الأرض. يقول الإصطخرى: «وأما صغد سمرقند فإنها أنزه الأماكن... لأنها مشتبكة الخضرة والبساتين؛ فهى ميادين وبساتين ورياض مشتبكة قد حفت بالأنهار الدائم جريها. والحياض فى صدور رياضها وميادينها. مخضرة الأشجار والزروع، ممتدة على جانبى واديها ومن وراء الخضرة من جانبيها مزارع تحرسها» ثم يختم كلامه بقوله: «وهى أزكى بلاد الله وأحسنها أشجارًا وثمارًا، وفى عامة مساكنهم البساتين والحياض والمياه الجارية، قل ما تخلو سكة أو دار من نهر جار»[٣٤].

وهذا الوصف الرائع يقدم لنا صورة صادقة عن سمرقند العريقة. ويبدو لى إن الإصطخرى لم يكن وحده المعجب بسمرقند، بل إن جميع الفاتحين قد أعجبوا بها وقدروها. فقد ذكرت كتب التاريخ أن رجلاً من خراسان قدم على كسرى أنوشروان أثناء حروبه مع الترك فى فرغانة فقال كسرى للرجل: أخبرنى مَنْ أحسن أهل خراسان لقاءً؟ قال الرجل: أهل بخارى. قال كسرى: فَمنْ أحسنهم ضيافة؟ قال الرجل: أهل سمرقند. فأعجب كسرى بها. وقيل: «إن الرحالة القدماء قد اختبروا البلاد، وما تمتاز به فوجدوا أخف بقاع الدنيا ماءً، ماءُ سمرقند[٣٥]».

---

(٣٣) الميل البرى: يساوى أربعة آلاف ذراع، يقدر بنحو (١٨٤٧) مترًا، فهو يساوى (١٠,٨٨٠) كم. د. الريس: الخراج والنظم المالية، ص٣٠٠.

(٣٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٦٥.

(٣٥) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ١، ص٢٩٥-٢٩٦.

ولما أشرف قتيبة بن مسلم (٤٩-٩٦هـ/ ٦٦٩ - ٧١٥م) على سمرقند رأى منها منظرًا فى غاية الحُسن، تحار فيه العيون. فقال لأصحابه شبهوها: فلم يأتوا بشىء. فقال لهم: كأنها السماء فى الخضرة وكأن قصورها النجوم الزاهرة، وكأن أنهارها المَجَرَّة[٣٦]. فاستحسن أصحابه هذا التشبيه جدًا. وتعجبوا من صدقه فى هذا الوصف. وهكذا؛ يبدو لنا أن سمرقند كانت مدينة حسنة شبيهة ببخارى، وكانت تمتاز بقصورها العالية، وأنهارها المتدفقة وجوها العليل. مما جعلها مطمح الأنفس. لذا فقد صارت مقرًا للتجار يجتمعون فيها من مختلف الآفاق.

- نشأة سمرقند:

أما عن نشأة المدينة فقد اختلفت المصادر حول المؤسس الحقيقى لها. فيذكر القزوينى: أن المدينة من بناء كيكاوس بن كيقباذ ملك الفرس[٣٧]، بينما يذكر ياقوت: أن المدينة من بناء الإسكندر المقدونى(٣٥٦- ٣٢٣ق.م) ملك اليونان. والذى بنى عليها سورًا ضخمًا، بلغ طوله اثنا عشر فرسخًا. ومن ثم فقد أُطلق على المدينة الإسكندرية[٣٨] نسبة إليه.

- وصف سمرقند:

وأما عن وصف سمرقند، فهى مدينة تمتاز بموقعها الجغرافى على نهر زرافشان. وتضرب بجذورها فى التاريخ وبغض النظر عن المؤسس الحقيقى لها، فإن أقدم وصف وصل إلينا لسمرقند الإسلامية فإنا ندين به لابن الفقيه الهمذانى (ت٢٩٠هـ - ٩٠٣م) والذى ذكر أن للمدينة

(٣٦) انظر الخبر بطوله فى الثعالبي: لطائف المعارف، ص ٢١٧.
(٣٧) القزوينى: آثار البلاد، ص٥٣٥.
(٣٨) ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص١٥٠.

اثنى عشر بابا من الخشب، ولكل باب مصراعان، ويوجد خلف كل باب، باب آخر ذو مصراعين أيضًا[٣٩].

وقد شغلت مساحة المدينة الداخلة، ألفين وخمسمائة جريب[٤٠]. وكان يقوم بها المسجد الجامع والقلعة وقصر الإمارة. وهى تختلف عن بخارى فى أن قلعتها كانت بداخل المدينة، ولسمرقند (المدينة الداخلة) أربعة أبواب، هى[٤١]: باب الصين فى جهة المشرق. وباب بخارى من جهة الشمال. وباب النوبهار فى جهة الغرب، والباب الكبير ويعرف باب (كِشّ) فى جهة الجنوب. كما تمتعت المدينة بدروبها الواسعة الفسيحة.

وهكذا ظلت سمرقند تنعم بالسلام والرخاء والهدوء، حتى وقعت تحت الغزو الروسى البغيض فى عام (١٨٦٨م/ ١٢٧٣هـ). فتغيرت ملامحها الجغرافية[٤٢]. ثم عادت إليها الحياة مرة ثانية وذلك بعد حصول أوزبكستان على استقلالها فى (١٩٢٤م/١٣٤٣هـ). وصارت سمرقند جزءًا أصيلاً من هذه الدولة.

---

(٣٩) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٣٢٥.

(٤٠) الجريب: يختلف عياره من بلد إلى أخر. فكان بالعراق يساوى (٣٦٠٠ذراعًا). وفى خراسان يساوى عشرة أقفزة. انظر الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص٦٦- ٦٧. والماوردى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص٢٨٣- ٢٨٩. ويقدر الدكتور الريس: مساحة الجريب - حاليًا - بنحو (١٣٥,٠٠٠) مترًا مربعًا كتاب: الخراج والنظم المالية، ص٢٩٠. بينما يرى (هنش) إن مساحة الجريب «القانونى» كان يعادل (١١٩٥٢م) فى العصور الوسطى المبكرة. أما فى العصور الوسيطة المتأخرة فكان يعادل (٩٥٨م م) بإيران والمناطق المتاخمة لها. انظر بارتولد: تركستان، مرجع سابق، ص١٧١. حاشية (١٨٣).

(٤١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧٨.

(٤٢) د. جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير، ص١١٥. سعيد أحمد محمد: التأثير الأيديولوجى للروس على المجتمعات الإسلامية بوسط آسيا «أوزبكستان» رسالة ماجستير، معهد الدراسات الأسيوية، جامعة الزقازيق، ص٤٥ وما بعدها.

مدن سمرقند:

تمتاز سمرقند بكثرة مدنها وتعددها. ولا أستطيع ذكرها كلها فى هذا العرض الجغرافى، لذا سأكتفى بذكر أهم المدن، وهى كالتالى:

(١) وَرَغْسَرَ: قرية كبيرة من قرى سمرقند، تُسقى من نهر الصُّغد وعندها مقاسم مياه النهر، وبها كثير من الكروم والبساتين. وقد أزيل عنها الخراج. وجُعل على أهلها إصلاح «سِكْور[٤٣] الماء» كما يقول الإصطخرى[٤٤]. وليس بها مسجد جامع.

(٢) مَا يُمرْغ: قرية من قرى سمرقند، على بُعد فرسخ من جنوبها كان بها مقام الإخشيذ ملك سمرقند، وبها قصوره. قال المقدسى: «وليس فى جميع الرساتيق أكثر قرى وأشجارًا وخيرات منه»[٤٥]. وقد نزلها السمعانى وقت خروجه إلى بخارى. وقال عنها: «وهى قرية كبيرة حسنة»[٤٦].

(٣) يَاركثْ: مدينة تقع على بُعد أربعة فراسخ من سمرقند، وماؤها من عيون لأن نهر الصغد لا يصل إليها، وكانت المدينة من قرى أشروسنة ثم حولت إلى سمرقند، وليس بها مسجد جامع[٤٧]. وكان يقال لها قديمًا [آهنكران]. ويقول فامبرى: إن معناها الملجأ والملاذ مشتق من كلمتى (بناه كت)[٤٨]. بينما يرى بارتولد: أن الكلمة الصحيحة (ياركث) – بالثاء – لأنها تتألف من كلمة (كث) ومعناها: قرية أو مدينة أو قلعة[٤٩].

---

(٤٣) السِكْر: هو السد الذى يبنى على النهر لحجز المياه. المعجم الوسيط، جـ١، ص٤٣٨.
(٤٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٧٧.
(٤٥) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧٩.
(٤٦) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص١٨٤.
(٤٧) مجهول: حدود العالم، ص٩١. السمعانى: نفس المصدر، نفس الجزء، ص٦٧٤.
(٤٨) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٤٥.
(٤٩) دائرة المعارف الإسلامية. مادة "ياركث"، م٨، جـ٥٢، ص١٣٩.

والجدير بالذكر: أن المدينة خربت على يد المغول، وأن أطلالها القديمة تعرف اليوم باسم «شركيه».

(٤) دَرغَم: قرية تقع فى جنوب سمرقند، على بُعد فرسخين منها وهى من أزكى أماكن سمرقند فى الزراعة، وليس بها مسجد جامع[٥٠]. وتشتمل على عدة قرى تصلها بمدينة (ما يمرغ) نزل بها السمعانى وأقام فيها أثناء زيارته إلى سمرقند[٥١].

(٥) كَبُوذْ نَجكَث: بلدة تبعد فرسخان عن سمرقند، مشتبكة الأشجار. خصبة الأرض[٥٢]. مازالت قائمة حتى اليوم وتعرف باسم «بنجكيز»[٥٣].

(٦) الكَشَّانيةَ: بلدة بنواحى سمرقند، تبعد عنها اثنى عشر فرسخًا شمال وادى الصُّغد. ويطلق عليها قلب الصغد. وذلك لأنها أعمر مدنه، وأهلها من ذوى اليسار والثراء[٥٤].

(جـ) مدينة كِشّ:

المدينة الثالثة من مدن إقليم الصغد، وهى مدينة عظيمة لها قلعة وحصن. بنيت من الآجر لأنها غزيرة الأمطار. ولها نهران يمران بها ينتفع بهما فى الزراعة. وللمدينة أربعة أبواب. هى: باب الحديد، وباب عبيد الله، وباب القصابين، وباب المدينة الداخلة[٥٥]. وكش حاليًا إحدى مدن أوزبكستان، ويقال لها اليوم «شهر سبز» ومعناها المدينة الخضراء.

(٥٠) ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٢٩٧.
(٥١) السمعانى: الأنساب، جـ٢، ص٤٧٠.
(٥٢) مجهول: حدود العالم، ص٨٥.
(٥٣) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٥٠٩.
(٥٤) اليعقوبى: البلدان، ص٣٩٣.
(٥٥) ابن حوقل: نفس المصدر، ص٤١٢.

(د) مدينة نَسَف (نَخشَب):

المدينة الرابعة من مدن إقليم الصغد، وهى مدينة كبيرة عظيمة الاتساع، بنيت من الآجر، غزيرة الأمطار، تقع على بُعد مائة ميل تقريبًا من مدينة كش من ناحيتها الغربية. ولها قلعة وحصن، وأرضها خصبة. وللمدينة أربعة أبواب، وهى: باب البخارية، وباب سمرقند، وباب كش، وباب غوبذين[٥٦]. والمدينة تقع على الطريق المؤدى من بخارى إلى بلخ. وقد مدح المقدسى كثرة أعناب المدينة، وأثنى على اتساع أسواقها. غير أنه عاب أهلها بقوله: «وهى كثيرة الأعناب الجيدة، والمزارع العذبة الطيبة... وأهلها غاغة، وبها عصبيات وحشية، وهم قوم سوء»[٥٧].

ويذكر السمعانى أنه أقام بها قريبًا من شهرين، وسمع بها جماعة من العلماء، ويثنى على المدينة بكثرة علمائها[٥٨]. ومدينة نسف هى التى ذكرها أبو تمام فى قصيدته التى يمتدح فيها الخليفة المعتصم العباسى فقال:

تهابـــك الـــروم فى معاقلهـــا والترك تخشاك من وراء نسف

ثانيًا: إقليم خُوارَزم[٥٩]:

خوارزم، اسم يطلق على الإقليم. وهو منقطع عن خراسان، فالصحارى تحيط به من كل الجوانب. يحده من الغرب والشمال بلاد الترك. ومن

(٥٦) ابن حوقل: نفس المصدر، ص٤١٣. القزوينى: آثار البلاد، ص٤٦٦.

(٥٧) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٨٣.

(٥٨) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٤٨٦.

(٥٩) ضبطها ياقوت هكذا: أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة ليست بألف صحيحة. ثم قال: «هكذا يتلفظون به» وقد سبق القول إن البلدة الوحيدة التى دخلها ياقوت من مدن ما وراء النهر هى خوارزم وذلك عام ٦١٦هـ (١٢١٩م) انظر: معجم البلدان، جـ٢، ص٢٥٢.. أما السمعانى: فقد ذكر الكلمة دون ضبط لها. انظر: الأنساب، جـ٢، ص٤٠٨.

الجنوب خراسان. ومن الشرق بلاد الصغد، ويمتد على جانبى نهر جيحون، ويطل بقاعدة عريضة على بحيرة خوارزم (بحر آرال) حاليًا.

وهذا الإقليم مشهور بكثرة المدن والقرى. قال جار الله الزمخشرى: «بخوارزم فضائل لا توجد فى غيرها من سائر الأقطار، وخصال محمودة لا تتفق فى غيرها من الأمصار، قد اكتنفها أهل الشرك، وأطافت بها قبائل الترك. فغزو أهلها معهم دائم والقتال فيما بينهم قائم، وقد أخلصوا فى ذلك نياتهم، وقد تكفل الله بنصرهم فى عامة الأوقات... وقد خصها الله (تعالى) بنهر جيحون، وادٍ عسر المعبر، بعيد المسالك، غزير الماء كثير المهالك، وأهلها أصحاب نفوس أبية، ولهم الوفاء والأمانة»[٦٠] ولا غرابة فى ذلك فالإمام الزمخشرى يمدح وطنه، ومسقط رأسه لأنه من قرية زمخشر – إحدى قرى خوارزم – وهو القائل:

ولم أر فى الناس قومًا كقومى ألـف وألفًـا ببـؤس وضـر
وأبعـد عـن فجـره يتقـى وأسـرع خطـوًا إلى كل بر[٦١]

ويقول ابن أرسلان الخوارزمى: «خوارزم مين (هكذا) أرض رخوة، وهى من ثغور الإسلام، ودار رباط... ومما لا ينكر من فضائلها طيب الهواء، وعذوبة الماء، والبساتين على شطها، والأنهار إلى القرى والمزارع. تطرد من جانبيها الأغذية الشهية، والفواكه الطيبة المتوفرة. فقد اتفق التجار الجوالون (على) أن مثلها لا يوجد»[٦٢].

(٦٠) القزوينى: آثار البلاد، ص٥٢٥.
(٦١) الخوارزمى: تاريخ خوارزم، مخطوط، ورقة ٤.
(٦٢) الخوارزمى: نفس المخطوط، ونفس الورقة.

نشأة خوارزم:

أما عن نشأة المدينة فهى أيضًا يكتنفها الغموض، يحدثنا المقدسى عنها ما **ملخصه**: أن أحد الملوك القدماء – لم يسمه – غضب على أربعمائة من أهل مملكته فأمر بنفيهم إلى موضع منقطع عن العمارات، فكان هذا المكان (كاث) – إحدى مدن خوارزم – فقام الناس ببناء أكواخ لهم؛ وكانوا يعيشون على صيد الأسماك فقيل لهم: كيف حالكم. فقالوا: عندنا هذا اللحم، وأشاروا إلى السمك. وعندنا هذا الحطب، فنحن نشوى هذا بهذا، ونتقوت به، فأطلق عليهم الملك [خوارزم]. لأن اللحم بلغة الخوارزمية (خوار) والحطب (رزم)[٦٣]. يقول ياقوت: ثم خفف استثقالاً لتكرير الراء فقيل خوارزم[٦٤]. أما فامبرى فيؤكد على أن معنى الكلمة المحارب[٦٥]. أما اليعقوبى فيطلق عليها اسم «بيل» ويقول: «خوارزم واسمها (بيل) وهى جانبان يشقها جيحون، ويعبر نهر بلخ إلى الترمذ والنهر يضرب سورها ومدينتها»[٦٦]. ويسميها ابن أرسلان الخوارزمى «المنصورة»[٦٧]. وبالجملة؛ فإقليم خوارزم عبارة عن كورة جليلة واسعة كثيرة المدن، ممتدة العمارة... كثيرة المزارع والشجر والفواكه والخيرات، مفيدة للتجار... حيث رزقهم الله تعالى الرخص والخصب[٦٨].

مدن خوارزم:

والآن نتعرف إلى بعض مدن إقليم خوارزم. وهى:

(٦٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٨٥.
(٦٤) ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٢٥٢.
(٦٥) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٢٣.
(٦٦) اليعقوبى: البلدان، ص٣٢٤. ولم يرد هذا الاسم فى باقى المصادر.
(٦٧) الخوارزمى: تاريخ خوارزم، مخطوط، ورقة ٤.
(٦٨) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٨٤– ٢٨٥.

(١) كَاثْ: بلدة كبيرة تقع شرق جيحون، لها قلعة حصينة، والجامع فى وسط الأسواق، بنى من الحجارة على أساطين، مغطى سقفه بالخشب. وجدير بالذكر، أن النهر قد حطم المدينة «حتى لم يبق منها رسم ولا طلل»[٦٩] كما يقول ابن حوقل، ثم ابتنى الناس مدينة (كاث الجديدة). وكانت إلى الشرق قليلا من المدينة القديمة، على بُعد مسافة من نهر جيحون كى تكون بعيدًا عن مخاطر الفيضان.

وتشير المصادر الجغرافية[٧٠] إلى أن معنى (كاث) بلغة أهل خوارزم الحائط فى الصحراء من غير أن يحيط به شىء. وبمرور الوقت صارت (كاث) قصبة الإقليم، وباب تركستان، وفرضة بلاد ما وراء النهر.

(٢) كُرْكَانج [الجُرْجَانِية]: العاصمة الثانية للإقليم بعد (كاث) وهى أكبر مدن خوارزم. كانت تسمى قديمًا مدينة (الفيل). وأطلق عليها المسلمون اسم الجرجانية. وتذكر المصادر الجغرافية[٧١] أن نهر جيحون قد حطم المدينة القديمة وخربها – كما حطم كاث – فابتنى الناس مدينة جديدة مكانها، وقد احتالوا فى رد خطر الماء بإقامة السدود من الخشب والحطب. ويقدم لنا المقدسى وصفًا لهذه المدينة فيقول: «إن للبلد أربعة أبواب – لم يذكر أسماءها – وهى فى كل يوم فى زيادة، وعلى باب الحجاج – أحد أبواب المدينة – قصر بناه المأمون[٧٢] عليه باب ليس بجميع خراسان أعجب منه»[٧٣].

(٦٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩٥.

(٧٠) مجهول: حدود العالم، ص٩٤، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص١١٢.

(٧١) الإصطخري: المسالك والممالك، ص١٦٨. ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩٥.

(٧٢) المأمون: هو محمد الملقب بخوارزمشاه، أمير كركانج، الذى أخضع البلاد لحكمه عام(٣٨٥هـ / ٩٩٥م)، وخلفه فى الحكم ابنه على عام (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م). ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٧، ص٤٩٠.

(٧٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٨٨.

وجدير بالذكر: أن ابن فضلان فى رحلته التى قام بها فى عام (٣٠٩هـ/٩٢١ م) قد دخل خوارزم، ووصف بردها الشديد، وذم أهلها، كما دخل مدينة (الجرجانية) وحدد المسافة بينها وبين خوارزم بأنها خمسون فرسخًا، وأقام بها عدة أيام. وقال: «فرأينا بلدًا ما ظننا إلا أن بابًا من الزمهرير قد فتح علينا منه»(٧٤). وبعد ارتفاع درجة الحرارة - نوعًا ما - واصل ابن فضلان رحلته إلى بلاد الصقالبة وفى سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م زار ياقوت الحموى الجرجانية أو كركانج كما سماها. وذلك قبيل الغزو المغولى لها. فقال عنها: «ولا أعلم أنى رأيت أعظم منها مدينة، ولا أكثر أموالا، وأحسن أحوالاً»(٧٥).

(٣) هَزَارَ أَسْبَ: معناها بالفارسية «ألف فَرسْ». وهى تقع على الضفة اليسرى لنهر جيحون. وقد وصفت المدينة بأنها كبيرة، ولها قلعة حصينة، أبوابها من الخشب، ولها خندق أمامها. أما الماء فإنه يحيط بها من جميع الجهات. لذلك فقد اضطر الناس إلى عمل جسر يعبرون عليه(٧٦).

وقد دخلها ياقوت عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م وقال عنها: «وفيها أسواق كثيرة و بزازون، وأهلها ذوو ثروة»(٧٧). والجدير بالذكر، أن اسم المدينة لم يتغير منذ الفتح الإسلامى وحتى اليوم.

(٤) زَمَخْشَرَ: قرية صغيرة تقع بالقرب من الجُرجانية. ويربط بينهما جسر عائم يرفع فى مساء كل ليلة. وللمدينة حصن وخندق، وأبوابها من الحديد(٧٨)، وبوسطها طريق كبير يشقها، ويقع الجامع فى طرف السوق.

---

(٧٤) ابن فضلان: رسالة بن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، ص٨٢-٨٥.

(٧٥) ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص٤٥.

(٧٦) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٦٤٠، القزوينى، آثار البلاد، ص٥٦٧.

(٧٧) ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٤، ص٤٧٧، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٩٤.

(٧٨) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٨٩.

ويبدو أن زمخشر اتسعت بمرور الوقت حتى إن السمعانى عندما زارها قال عنها: «زمخشر قرية من قرى خوارزم كبيرة، بت بها ليلتين فى توجهى إلى خوارزم»[٧٩].

(٥) أَرْثَخشِميثَين: تقع على بُعد مرحلة من مدينة (خيوه)، وعلى بُعد ثلاثة أيام من الجرجانية – عاصمة الإقليم – وهى مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة، ونعمة وافرة. أقام بها ياقوت عام ٦١٦هـ – ١٢١٩م عدة أيام[٨٠]. وقد خربها المغول ولم يبق لها أثر.

ثالثًا: إقليم طَخَارِسْتَانَ[٨١]

يقع هذا الإقليم فى أعلى نهر جيحون. وكان تابعًا لبلخ. وفى القرن الخامس الميلادى احتله الهياطلة. وفى القرن السادس الميلادى قضى الترك عليهم[٨٢]. واحتلوا المدينة. وكان حاكم طخارستان إبان غزوات المسلمين لها يلقب باللقب التركى [يبغو] وبالعربية [جبغوية][٨٣].

وطخارستان تنقسم إلى قسمين: طخارستان العليا وتشمل مدن الطالقان، والختل، وبذخشان، والصغانيان، وزم. وطخارستان السفلى وتشمل: خُلم، وسمنجان.

والآن نعرض لبعض هذه المدن:

(١) بَذَخْشَانَ: مدينة صغيرة، خصبة الأرض. بها الكروم، وتجرى فيها الأنهار[٨٤]. وهى تقع على الشاطئ الأيسر من المجرى الأعلى لنهر

(٧٩) السمعاني: المصدر السابق، جـ٣، ص١٦٣.
(٨٠) ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص١١٩، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٩٧.
(٨١) ضبطها الإصطخري: طُخَيرِسْتان، انظر المسالك والممالك، ص١٥٦ .
(٨٢) دائرة المعارف الإسلامية، "مادة طخارستان"، م٦، جـ٤٥، ص٣٤٦.
(٨٣) جبغوية: لقب ملك الترك الغزية، الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص١٢.
(٨٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٥٦، مجهول: حدود العالم، ص٨٢.

جيحون، أو على وجه الدقة على الشاطئ الأيسر لنهر (بنج) – جرياب قديمًا – أحد روافد نهر جيحون. لذا فقد وصفت المدينة بأنها ذات نعم وفيرة، كما اشتهرت بكثرة المعادن ومما هو جدير بالذكر، أن السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد [١٧٠– ١٩٣هـ/ ٧٨٦– ٨٠٩م] قد بنت هناك حصنًا قويًا للدفاع عن هذه البلاد أمام هجوم الترك. قال السمعانى عنه «ورأيت بها حصنًا عجيبًا قل ما رأى الناس مثله»[٨٥].

أما عن مكان مدينة بذخشان – حاليًا – فيرجح لسترنج، أن مدينة [فيض آباد] قد قامت على أنقاض المدينة القديمة[٨٦]. وفيض آباد هذه تعد جزءًا من جمهورية طاجكستان المستقلة فى ٥ ديسمبر ١٩٢٩م (٥ من ذى الحجة ١٣٤٨هـ)، عن الاتحاد السوفيتى السابق.

(٢) الخُتَّل: مدينة تقع على المجرى الأعلى لنهر جيحون، بين نهرى (بنج) و(وخش) اللذين عرفا عند الرحالة المسلمين باسم (جرياب) و(وخشاب). وقد أطلق على هذا الإقليم – أيضًا ختلان. وكان أمراءه قبل الإسلام يتلقبون باسم "ختلان شاه" يصف الإصطخرى هذه المدينة بأنها كثيرة الأنهار و الأشجار، فى غاية الخصب، وأبنيتها من الطوب اللبِّن. وسورها من الحجارة[٨٧]. ومن أشهر مدنها هُلْبُك – كلاب حاليًا – ومُنْك – بلجون حاليًا – والجدير بالذكر: أن هذه المدينة وقعت فى القرن (١٠هـ – ١٦م) لسيطرة الأزابكة، وأبطلوا استعمال اسم [الختل]، واستبدلوا به اسم المدينة الحديثة كلاب[٨٨]. وفى القرنين (١٨–١٩م)

(٨٥) السمعاني: الأنساب، جـ١، ص٣٠١.
(٨٦) دائرة المعارف الإسلامية، مادة بذخشان، م٦، جـ٤٧، ٥٠٩.
(٨٧) الإصطخري: المسالك والممالك، ص١٥٦.
(٨٨) دائرة المعارف الإسلامية، مادة الختل، م١٦، جـ١٢٨، ص٤٩٠.

أصبحت الختل جزءًا من جمهورية أوزبكستان، وذلك بعد ضمها إلى بخارى.

(٣) الصَغَانِيَان: مدينة تقع غرب نهر وخشاب – الوخش حاليًا – ويحدها من الجنوب نهر جيحون. قال الإصطخرى عنها: «وهى مدينة أكبر من الترمذ، إلا أن الترمذ أكثر مالاً وأهلاً، ولها قلعة»[٨٩]. ويضيف المقدسى: «وهى ناحية شديدة العمارة كثيرة الخيرات، بها ستة عشر ألف قرية (هكذا)، رخيصة الخبز، كثيرة اللحم. فى كل بيت ماء جار، قد التفت بها الأشجار»[٩٠]. ويقول السمعانى: «إن بها مسجد حسن مشهور»[٩١] والصغانيان تعرف – حاليًا – باسم سرآسيا.

(٤) التَرمْذ: مدينة حسنة؛ تقع على الضفة الشمالية لنهر جيحون بالقرب من مصب نهر سُرْخان. ويقول السمعانى إن أهلها ينطقون باسمها تَرمْيذ[٩٢].

وكانت الديانة البوذية هى السائدة فى المدينة قبيل الفتح الإسلامى، وكان أميرها يدعى «ترمذ شاه». وكان للمدينة قلعة حصينة تشرف على النهر. ونظرًا لوقوع المدينة على النهر مباشرة فكانت مرسى مهما للسفن. كما قامت بها دار لصناعة السفن[٩٣]. ويتفق كل من الإصطخرى وابن حوقل على أن المدينة قد بنيت من الطوب اللبِّن. وكانت معظم طرقها مفروشة بالأحجار، عامرة بالسكان[٩٤].

---

(٨٩) الإصطخري: المصدر السابق، ص١٦٧.
(٩٠) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٨٣.
(٩١) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص٤٥٩.
(٩٢) السمعانى: نفس المصدر، والجزء، والصفحة.
(٩٣) مجهول: حدود العالم، ص٨٥، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص٤٤١.
(٩٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٦٧، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩٤.

وفى العصر الحديث وبالتحديد فى عام(١٨٩٤م/١٣١٢هـ) بنى الروس حصن ترمذ Termez الذى على مسيرة خمسة أميال من أطلال ترمذ القديمة. وفى عام(١٩١٦م/١٣٣٥هـ) فُتح الخط الحديدى الممتد بين بخارى وترمذ. ودمرت المدينة أثناء الثورة الروسية ثم أعيد بناؤها من جديد، وتسمى حاليًا ترمز[٩٥].

(٥) أَخْسِيسَك: مدينة صغيرة تقع بحذاء مدينة زمّ، وكان أهلها يعبرون إلى زم للصلاة فى جامعها، وكان يخرج منها طريق يربطها بمدينة نسف (نخشب). ومع ذلك فالمدينة حصينة، خصبة، بها آبار ومراع[٩٦].

(٦) سِمْنَجَان: إحدى مدن طخارستان السفلى. وهذه المدينة كانت تقع بين الجبال، وكانت معظم بيوتهم منحوتة فى الجبل ، وكان بها حصن عليه عدة أبراج للدفاع عنها ضد الأتراك، وقد انتشرت بها عبادة الأصنام، وكانت تسكنها طائفة من عرب بنى تميم[٩٧]. ويمدحها السمعانى – برغم وقوعها بين الجبال – بقوله: «وبها شعاب كثيرة، وثمار وأشجار»[٩٨].

والآن: قد فرغت من ذكر المدن الواقعة على نهر جيحون، والمدن الواقعة بين نهرى جيحون وسيحون ننتقل إلى المدن السيحونية:

رابعًا: إقليم فرغانة:

هو أحد أقاليم نهر سيحون، ويمتد لمسافة مائتى ميل على طول جانبى النهر، وأهم مدنه:

(٩٥) دائرة المعارف الإسلامية، مادة ترمذ، م٩، جـ٦٩، ص٢٨٦–٢٩٠.
(٩٦) الإصطخرى: المصدر السابق، ص١٦٧، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٨٦.
(٩٧) ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٧٠.
(٩٨) السمعانى: الأنساب، جـ٣، ص٣٠٧.

(١) فَرْغَانة: مدينة واسعة بما وراء النهر، كثيرة الخيرات تَبعُد عن سمرقند بنحو خمسين فرسخًا، يرجع بناؤها إلى الملك كسرى أنوشروان. ويقال: إنه نقل إليها مجموعة مختلفة من الناس وسماها [هرخانة][٩٩]. وقيل سميت [أَزْهَر خانة] ومعناها بالفارسية [من كل بيت][١٠٠]. ويسميها اليعقوبى (كاسان) ويصفها بأنها «مدينة جليلة القدر، عظيمة الأمر»[١٠١]. وتمتاز فرغانة بأن الجبال والصحارى تحيط بها من جميع الجهات، ومع ذلك فالمصادر تجمع على أنها ذات نعم وفيرة، ومياه جارية، وضياع كثيرة[١٠٢]. وكانت أوسع قرى بلاد ما وراء النهر تقع فى فرغانة «وربما بلغت مساحة القرية مرحلة، لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم ومراعيهم»[١٠٣].

وفى العصر الحديث وبالتحديد فى عام(١٨٧٦م/١٢٩٣هـ) وقعت فرغانة تحت الاحتلال الروسى، وأطلق عليه [خُانية خُوقند]. وبعد الثورة الروسية، أعادت إليها الحكومة الروسية رسميًا اسمها القديم فرغانة[١٠٤]، والتى مازالت تعرف به حتى اليوم.

(٢) أَخِسْيكَث: عاصمة الإقليم، تقع على الشاطئ الأيمن لنهر الشاش – سيحون – ومعناها بلغة الصغد «مدينة الأمير» وتمتاز بأنها مدينة واسعة، مستوية، تبعد عن الجبال بنحو نصف فرسخ، وتبلغ

(٩٩) القزوينى: آثار البلاد، ص٦٠٣.
(١٠٠) ياقوت: المصدر السابق، نفس الجزء، ص٤٢٨.
(١٠١) اليعقوبى: البلدان، ص٢٩٤.
(١٠٢) مجهول: حدود العالم، ص٨٧.
(١٠٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٢٠، السمعانى: الأنساب، جـ٤، ص٣٦٧.
(١٠٤) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٦٩، جاى ونت: أضواء على آسيا، ص٦٢.

مساحتها نحو ميل فى مثله[١٠٥]، وقد بنيت من الطوب اللبن، ولها قلعة عظيمة، ومسجد جامع، وبها المياه الجارية، والحياض الكثيرة.

وقد ذكر ابن حوقل أبواب المدينة الخمسة وهى: باب بجير، باب المرقشة، باب كاسان، باب الجامع، باب رهابه[١٠٦]. أما المقدسى فقد دخل المدينة وأثنى عليها بقوله: «إنها بلد كبير خطير بالمشاجر المحيطة به، والأنهار الفائضة إليه مع عمارة وخصب ورخص». ولكنه ذم أهلها بقوله: «وفى أهلها غلظة وحمرة»[١٠٧].

ظلت أخسيكث تنعم بالهدوء والسلام إلى أن فاقت على الغزو المغولى الذى دمر المدينة، وتركها أطلالاً مازالت قائمة إلى وقت قريب، ويطلق عليها «إسكى أخسى» وتبلغ مساحتها - كما يقول بارتولد - ألف خطوة من الغرب إلى الشرق، وستمائة من الشمال إلى الجنوب. وتقع على مائة وخمسين قدمًا فوق مستوى نهر سيحون[١٠٨]. وعلى كل حال: لم يبق لنا من أخسيكث الإسلامية غير هذا الوصف الذى تركه لنا السمعانى حين قال: «أخسيكث من بلاد فرغانة، كانت من أنزه بلادها وأحسنها، خرج منها جماعة من العلماء قديمًا وحديثًا»[١٠٩].

(٣) أَنْدُكَان: أصبحت عاصمة الإقليم بعد (أخسيكث). ومع الأسف لم تمدنا المصادر الإسلامية بمعلومات عن هذه المدينة سوى أنها كانت تقع على يسار نهر سيحون؛ كما كانت مركزًا تجاريًا مهما[١١٠].

---

(١٠٥) دائرة المعارف الإسلامية، مادة أخسيكث، م٢، جـ١٤، ص٤٢٠

(١٠٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٢٠، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٣٨.

(١٠٧) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧١.

(١٠٨) بارتولد: تركستان، ص٢٧٣، ودائرة المعارف الإسلامية، م٢، جـ١٤، ص٤٢٠.

(١٠٩) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص٩٥.

(١١٠) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٤٨٦.

وفى العصر الحديث وقعت المدينة تحت الاحتلال الروسى عام (١٨٧٠م/١٢٨٦هـ) وقام الشعب بالثورة عام(١٨٩٨م/١٢٩٤هـ)، وأخمدت السلطات الروسية الثورة بالشدة والعنف. وفى عام (١٩٠٢م/١٣١٩هـ) تعرضت المدينة لزلزال عظيم دمر جميع المنازل تقريبًا. وذهب ضحيته ما يقرب من أربعة آلاف فرد، وأعادت الحكومة الروسية بناء المدينة من جديد، وأنشأت فيه حيًا روسيًا. وفى عام(١٩٢٤م/١٣٤٢هـ) استقلت أندكان وصارت جزءًا من جمهورية أوزبكستان، وتعرف حاليًا باسم أندجان[١١١].

(٤) خُجِنْدة: مدينة عظيمة تقع على الضفة اليسرى لنهر سيحون جنوب فرغانة، تبعد عن سمرقند مسافة عشرة أيام وتعرف بالفارسية [دِلْ مَزنَدَه] ومعناها بالتركية «المدينة الجميلة»[١١٢] قال الشاعر فى وصفها:

ولـم أرَ بَلـدة بإزاء شـرقٍ ولا غـربٍ بأنزَه من خُجِنْـده
هى الغـراءُ تُعجـب مَنْ رآها وهـى بالفارسية دِلْ مَزنَده[١١٣]

وكانت خجندة تمتاز بالطول، فطولها أكثر من عرضها، لها قلعة قوية؛ وبها مسجد جامع يقع وسط المدينة، ويتميز أهلها بالجمال والمروءة. يقول المقدسى: «خجندة مدينة نزيهة ليس بهذا الجانب (يعين فرغانة) أطيب منها. وسطها نهر جار»[١١٤].

(١١١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة أندكان، م٤، جـ٣٢، ص٦٠٢.
(١١٢) فامبري: تاريخ بخارى، ص٤٥.
(١١٣) ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٢١٦.
(١١٤) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٣٢٢.

أما تاريخ المدينة فى العصر الحديث، فقد وقعت فى عام (١٨٦٦م/١٢٨٢هـ) فى يد الجيوش الروسية بعد حصار دموى استمر ثمانية أيام قتل فيها ألفان وخمسمائة جندى من الجنود المدافعين عن المدينة. وفى عام(١٩٦١م/١٣٨٠هـ) غير الروس اسم المدينة إلى [لينيبين آباد][١١٥].

(٥) أُوْزَكَنْد: آخر مدن فرغانة حيث تقع على حدود الترك، ويمر بها نهران: أحدهما: يدعى بتاغر ويأتى من هضبة التبت. والآخر: برسخان، ويحيط بالمدينة سور ضخم للدفاع عنها ضد الأتراك، ولها قلعة كبيرة، ولها أربعة أبواب[١١٦].

وتمتاز المدينة كذلك بكثرة البساتين، والمياه الجارية، والأسواق العامرة، ويقول المقدسى: «على بابها نهر يخاض، وليس له جسر...»[١١٧].

(٦) أُوْش: تقع شرق مدينة قُبَاء - إحدى بلاد فرغانة - وهى [أى أوش]. مدينة عامرة، كثيرة الأنهار التى تسقى أراضيها، لها ثلاثة أبواب هى: باب الجبل، باب الماء، باب مغكذه (ومعناه باب بيت النار)[١١٨]. وهذه الأبواب محصنة وبالقرب من المدينة جبل عليه مراصد لمراقبة تحركات الترك، لذا فأهلها مقاتلون. وبالجملة: «فالمدينة رحبة، منعمة، جامعها فى وسط الأسواق، كثيرة الخير، واسعة المياه»[١١٩].

(١١٥) دائرة المعارف الإسلامية، مادة خجنده، م١٦، جـ١٢٨، ص٥٠٤.
(١١٦)الإصطخرى: المسالك والممالك ص١٨٧، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٢٠.
(١١٧) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧٢.
(١١٨) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٢٠.
(١١٩) المقدسى: المصدر السابق، نفس الصفحة، ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٢٢٤.

خامسًا: إقليم أَشْروسَنَة [١٢٠]:

يقع هذا الإقليم فى القسم الرابع من الأرض – كما يقول البيرونى[١٢١] – وهو أحد أقاليم بلاد ما وراء النهر، يقع إلى الشمال الشرقى من سمرقند، أما حدوده الجغرافية فهى: يحده شمالا: الشاش وبعض فرغانة، وشماله الغربى: السهوب الواسعة لنهر سيحون. ومن الجنوب: بعض حدود كش والصغانيان وشومان. وجبل البتم الذى يمتد على طول المجرى الأعلى لنهر زرافشان. وهذه الجبال تعد جزءًا من الإقليم. ومن الشرق: بعض فرغانة أيضًا كان يسكن هذا الإقليم قبل الإسلام جماعة من الإيرانيين يحكمهم أمراؤهم الذين يحملون لقب (الأفشين)[١٢٢] ويشمل هذا الإقليم الكثير من المدن والقرى، وبه الخيرات الوافرة ويقال: إن به أربعمائة حصن[١٢٣].

وفيما يلى عرض لأهم مدن الإقليم:

(١) بُو مْجِكت أو بُو نْجكَث: عاصمة الإقليم. وهى بلدة كبيرة، خصبة، عامرة، وفيرة، بناؤها من الطوب اللبن والخشب وتنقسم إلى قسمين هما:

---

(١٢٠) اختلفت المصادر فى كتابة هذا الاسم. فقد ذكره الإصطخرى (ص١٨٢)، وابن حوقل (ص٤١٣). والمقدسى (ص٢٧٧) وصاحب خريدة العجائب (ص٦٠): أشروسنة. بينما ذكره اليعقوبى (البلدان ص٢٩٤)، وأبى الفدا (تقويم البلدان ص٤٨٥)، وابن الفقيه (المختصر ص٣٢٢)، وصاحب حدود العالم (ص٨٧)، والسمعانى (جـ١ ، ص١٤١)، ودائرة المعارف الإسلامية (م٣، جـ٢٠، ص٢٩٦): أسروشنة. أما ياقوت فقد ذكر الاسمين، جـ١، ص١٤٥ – ١٦١.

(١٢١) البيرونى: تحديد نهايات الأماكن، مخطوط، ورقة ١٢٤.

(١٢٢) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص١١٩.

(١٢٣) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٣٣.

(أ) المدينة الداخلة: ويحيط بها سور ضخم، ولها بابان هما: باب المدينة، والباب الأعلى. وبداخلها القلعة والمسجد والأسواق والسجن، ويجرى بها نهر كبير يسقى البساتين[١٢٤].

(ب) المدينة الخارجة: فيحيط بها سور ضخم أيضًا يقدره الإصطخرى بنحو ثلاثة فراسخ[١٢٥] ولها أربعة أبواب، وهى: باب زامين، باب مِرَسْمَنده، باب نوجكث، باب كهلباذ [أوكهاباذ] ويخترق المدينة ستة أنهار مما جعلها فى غاية الخصب، والنزهة. وقد وصل عدد سكانها إلى نحو عشرة آلاف نفس[١٢٦]. أما مدينة بومجكت القديمة، فقد تهدمت، وقامت على أطلالها مدينة «أرايته» الحالية[١٢٧].

(٢) زامَين أو سُوسَنْدة: مدينة تقع على طريق خجندة وفرغانة، يشقها نهر عظيم، وتقع المدينة على جانبيه. هذا وقد خرب النهر مدينة زامين مما اضطر الناس إلى بناء مدينة جديدة هى سوسندة، ونقل الناس الأسواق والمسجد الجامع إليها. ويذكر المقدسى: أن الأهالى قد أقاموا جسورًا صغارًا على هذا النهر الذى يشق مدينتهم، لكى يُسهل لهم العبور[١٢٨] وعلى كل، فقد تمتعت المدينة الجديدة بالرخاء، وقامت بها البساتين والمزارع، وعاش أهلها فى أمان حتى إن المدينة لم يكن عليها سور خارجى كما يقول بن حوقل[١٢٩].

---

(١٢٤) مجهول: حدود العالم، ص٨٧.

(١٢٥) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٨٣، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤١٤.

(١٢٦) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧٧.

(١٢٧) بارتولد: تركستان، ص٢٨٠، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٥١٨.

(١٢٨) المقدسى: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٢٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٦٤، على حين يذكر صاحب حدود العالم، ص٨٦ أن لها سور حصين.

(٣) سَابَاط: مدينة تقع بين زامين وبومجكت فى طريق فرغانة إلى الشاش، تَبُعد عن سمرقند بنحو عشرين فرسخًا على قول السمعانى[١٣٠]. وعن خجندة بنحو عشرة فراسخ على قول ياقوت[١٣١]. ولم تمدنا المصادر الإسلامية بالتفاصيل الكافية عن هذه المدينة سوى قول المقدسى: «وساباط عامرة، جُل أسواقها مُظّللة، مسقوف، وبها عين ماؤها جار، يحدق بها البساتين، ويجمع الطرق فيها»[١٣٢].

(٤) دِيَزك: المدينة الرابعة بالإقليم، تقع فى السهل فى شمال غرب زامين؛ تمتاز بمياهها الجارية؛ وبساتينها الخصبة كما كانت المدينة مركزًا للمتطوعين من أهل سمرقند. لذا فقد شُيد بها عدد كبير من الرُباطات والخانات[١٣٣].

سادسًا: إقليم الشاش:

يقع إقليم الشاش غرب إقليم فرغانة؛ على الضفة اليمنى لنهر سيحون. وهو إقليم واسع فمقدار عرضه مسيرة يومين فى ثلاثة أيام. وليس بخراسان وبلاد ما وراء النهر إقليم على مقدار الشاش من المساحة. كما يقول ابن حوقل[١٣٤].

وإقليم الشاش يمتد فى أرض سهلة، مستوية، قرى عامرة، أبنيتهم من الطوب اللبن، وعامة دورهم يجرى فيها الماء. كلها مستترة بالخضرة، وتنتشر فيها البساتين والمتنزهات أهلها مقاتلون غزاة، وذلك لأن مدينتهم

(١٣٠)السمعانى: الأنساب، جـ٣، ص١٩٣.
(١٣١) ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٥.
(١٣٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧٧.
(١٣٣) الإصطخرى: المسالك والممالك ص١٨٣، وصاحب حدود العالم، ص٨٧ يسميها دزك.
(١٣٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤١٦، القزوينى: آثار البلاد، ص٥٣٨.

أكبر ثغر فى وجه الترك. وبالجملة: فإقليم الشاش من أنزه بلاد ما وراء النهر. كما يقول الإدريسى[١٣٥].

أما عن تطور المدينة، فإنها كانت تعرف قديمًا باسم جج أو جاج. وهو اسم المدينة بالفارسية[١٣٦] .وبعد الفتح الإسلامى لها أطلق عليها الشاش. ثم تعرضت المدينة للغزو والتدمير أكثر من مرة، بداية من الغزو المغولى، ومرورًا بغزو محمد خوارزمشاه، ثم غزو تيمور لنك. ومنذ هذا العصر تحرف اسم المدينة من الشاش أو الجاج إلى تاشكنت، ومعناها مدينة الحجر[١٣٧]. ثم حرفه السكان الناطقين بالتركية إلى طشقند الحالية.

وفى العصر الحديث وبالتحديد فى عام (١٨٦٥م/١٢٨١هـ) تعرضت المدينة للغزو السوفيتى، وفى صباح يوم ٢٧ أكتوبر(١٩٢٤م/١٣٤٢هـ) حصلت المدينة على استقلالها. وأصبحت عاصمة لجمهورية أوزبكستان الاتحادية[١٣٨].

والآن نعرف ببعض مدن الإقليم:

(١) بِنْكث: عاصمة الإقليم[١٣٩]. وكانت تنقسم – كباقى مدن بلاد ما وراء النهر إلى قسمين: مدينة داخلية، وأخرى خارجية.

وأما المدينة الداخلية: فتبلغ مساحتها فرسخ فى مثله، ولها ثلاثة أبواب، وهى: باب أبى العباس، باب كش – الذى يصل إلى سمرقند، وباب الجنيد[١٤٠]. وتمتاز المدينة بقلعتها الضخمة التى تحميها من

(١٣٥) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ١، ص٧٠٣.
(١٣٦) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٢٤.
(١٣٧) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٥٢٤ – ٥٢٥.
(١٣٨) د. مصطفى رمضان: المسلمون فى آسيا الوسطى وإيران، ص٢٣٥.
(١٣٩) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص٤٠٥، ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٣٩٤.
(١٤٠) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧٦.

خطر الترك، وكان لهذه القلعة بابان، أحدهما: يفضى إلى الداخل، والأخر: يفضى إلى البستان، وكان المسجد الجامع يقع بالقرب من سور القلعة؛ أما السوق ففى وسط المدينة.

وأما المدينة الخارجية: فكان يحيط بها سور ضخم يحميها ويحمى الناحية كلها. ويمكن أن أقدم وصفًا سريعًا لهذا السور بأنه: كان يحيط بمدينة الشاش من ناحية الشمال. ويأخذ هيئة نصف دائرة، يصل ما بين ضفة نهر الترك فى الشرق، حتى نهر سيحون فى الغرب. وكان هناك على بُعد فرسخ من هذا السور خندق عميق[١٤١] يمتد من الجبل شرقًا حتى وادى سيحون غربًا. كل هذا لحماية البلاد من خطر الترك أما عن أبواب المدينة الخارجية فهى سبعة – كما يقول المقدسى وابن حوقل – مع اختلاف فى اللفظ بينهما، وهى كالتالى:

١- باب فرغكد (فرغذ عند ابن حوقل).

٢- باب خاسكث (خاسكت عند ابن حوقل).

٣- باب سنديجا (سكنديجاق ابن حوقل).

٤- باب الحديد.

٥- باب بركر دجا (باكر ديجاق عند ابن حوقل).

٦- باب سكرك.

٧- باب در ثغرباذ (در نصر باد)[١٤٢].

وأخيرًا، فإن المدينة كانت خصبة حيث يشقها عدة أنهار تسقى البساتين والأشجار[١٤٣].

(١٤١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤١٧.

(١٤٢) المقدسى: نفس المصدر ونفس الصفحة، ابن حوقل: نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١٤٣) مجهول: حدود العالم، ص٨٧.

(٢) تَونْكَت: عاصمة إيلاق، وتقع على بُعد ثمانية فراسخ من الشاش[١٤٤]. تبلغ مساحتها نحو نصف مساحة مدينة بنكث السابقة. وتمتاز مدينة تونكث بالخصب، والمياه كانت تخترق أزقتها، وتسقى رساتيقها، وتقوم بعمارتها[١٤٥]. والجدير بالذكر، أن المسافة الواقعة بين الشاش وتونكث كانت مغطاة – بالبساتين والأشجار والخضرة والمراعى. وكانت هذه المناطق من أماكن النزهة لأهل المنطقة.

وأما عن حماية المدينة، فكان لها قلعة ضخمة، ويحيط بها سور كبير للدفاع عنها ضد خطر الترك. ويقع داخل المدينة المسجد الجامع، ودار الإمارة والحبس، وتقام الأسواق فى وسطها[١٤٦].

(٣) أَسَفيجَاب أو أَسَبيجَاب: تقع فى شمال الشاش على يمين نهر سيحون[١٤٧]، وتبعد عنها بنحو مرحلتين على قول اليعقوبى[١٤٨] والمدينة تقع بالتحديد على نهر أريس – أحد روافد سيحون – وقد بلغت مساحتها نحو الثلث من مدينة بنكث. هذا، وكانت المدينة عامرة، واسعة، على مستوى من الأرض، وبها مقر الحاكم، وأبنيتهم من الطوب اللبن[١٤٩].

وأما عن حماية المدينة، فإنها كان يحيط بها سور ضخم مقداره فرسخ، ولها أربعة أبواب، وهى:

١- باب نوجكت (نوجكث عند ابن حوقل).

٢- باب فرخان (فر خاذ عند ابن حوقل).

---

(١٤٤) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص٤٩٤، ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٤٥٨.

(١٤٥) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ١، ص٧٠٤.

(١٤٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤١٨.

(١٤٧) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص١٤٧، ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص١٤٧.

(١٤٨) اليعقوبى: البلدان، ص٢٩٥، ويطلق عليها (أسبيشاب).

(١٤٩) مجهول: حدود العالم، ص٩١.

٣- باب شاكرانة (سراكراثه عند ابن حوقل).

٤- باب بخارى[١٥٠].

وأما المسجد الجامع، والقلعة، والحبس، والأسواق فكانت تقع داخل المدينة. هذا، وقد تميزت المدينة بأنها كانت ثغرًا جليلاً، ودار جهاد للمسلمين ضد الترك، وقام بها ما يقرب من ألف وسبعمائة رباط للمتطوعين فى الجهاد. ومنها: رباط النخشبيين - نسبة إلى مدينة نخشب (نسف) - ورباط البخاريين، ورباط السمرقنديين... إلخ. وبفضل جهاد ومرابطة أهل أسفيجاب فقد أسقط الخلفاء عنهم الخراج يقول الإصطخرى: «وليس بما وراء النهر مدينة لا خراج عليها إلا إسيجاب»[١٥١].

(٤) طَراز: مدينة تقع بالقرب من أسفيجاب. وهى ثغور الترك[١٥٢]. قيل فى وصفها: «إنها مدينة جليلة، حصينة، كثيرة البساتين، مشتبكة العمارة، بها نهر كبير. وهى كذلك: طيبة التربة، لطيفة الهواء، وأهلها مشهورون بالجمال»[١٥٣]. وكان للمدينة أربعة أبواب - لم تذكر المصادر أسماءها - ويحيط بها خندق عميق. أما المسجد الجامع فإنه كان يقع وسط الأسواق[١٥٤].

(٥) فاراب أو باراب: مدينة صغيرة تقع على الضفة الشرقية لنهر سيحون، مقدارها فى الطول والعرض أقل من مرحلة[١٥٥]. أرضها سبخة،

(١٥٠) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧٣، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤١٨.
(١٥١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٨٧.
(١٥٢) السمعانى: الأنساب، جـ٤، ص٥٥. ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٢٥٥.
(١٥٣) الإدريسى: نزهة المشتاق، جـ١، ص٧٠٥.
(١٥٤) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧٤.
(١٥٥) السمعانى: الأنساب، جـ١، ص٢٥١، وجـ٤، ص٣٣١، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص٢٥٤، وجـ٣، ص٤٠٦.

ذات غياض، ولها حسن عظيم يقع فيه المسجد الجامع. وبسبب موقع المدينة على حدود الترك فقد اشتهر أهلها بالجهاد، حيث كان يخرج منها نحو سبعين ألف رجل – على قول المقدسى – للجهاد فى سبيل الله تعالى[١٥٦].

❑❑❑

(١٥٦) المقدسى: المصدر السابق، ص٢٧٣.

المبحث الثانى: الأنهار الرئيسة فى بلاد ما وراء النهر

تمتعت بلاد ما وراء النهر بكثرة أنهارها – وسوف نتحدث عنها بالتفصيل فى فصل الرى والزراعة – أما الآن فنركز على النهرين الرئيسين وهما نهرا جيحون، وسيحون.

(أ) نهر جَيْحَون:

كان نهر جيحون – قديمًا – يُعد الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية، والأقوام الناطقة بالتركية. أو بمعنى أخر بين إيران وتوران[١٥٧]. فما كان فى شماله من أقاليم سماها العرب: ما وراء النهر، أو الهياطلة[١٥٨].

هذا، وقد أطلق العرب على نهر أُوكْس oxus اسم جيحون أو نهر بلخ[١٥٩]. وذلك لأن العرب قد سموا الأنهار بأسماء المدن الكبيرة التى تقع عليها، أو تقع قريبة منه، وإذا كانت بلخ تقع على بُعد بضعة أميال من ضفة جيحون الجنوبية، إلا إنها أكبر المدن القريبة منه. ومن ثم أطلق المسلمون على نهر أوكس، جيحون، أو نهر بلخ.

والسؤال الآن: كيف تغير اسم نهر جيحون قديمًا إلى أَمُّوْ دِرْيَا حديثًا؟

عرف نهر جيحون – كما سبقت الإشارة – باسم نهر أُوكس وهو محرف من الصيغة الإيرانية وخشو أو فخشو. وبعد الغارة المغولية على

(١٥٧) توران: كلمة إيرانية تطلق على البلاد التى تقع إلى الشمال الشرقى من إيران ونتيجة الهجرات الآسيوية، أصبح لفظ (توره) يطلق على الأعداء الإيرانيين وهم الطخاريون، والهياطلة والترك. دائرة المعارف الإسلامية، مادة توران، م١٠، ص١٢٣.

(١٥٨) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٧٨.

(١٥٩) المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٩٤، ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص١٠١.

هذه البلاد كاد أن يبطل استعمال اسم جيحون. وأطلقوا عليه آمو – ومعناها بالتركية النهر – وذلك نسبة إلى أكبر المدن الواقعة عليه وهى مدينة آمو، والتى سماها المسلمون آمل – مسقط رأس الإمام ابن جرير الطبرى (ت٣١٠هـ /٩٢٢م)– والتى عرفت فيما بعد باسم آموية[١٦٠]، وتعرف حاليًا باسم جارجوى.

أما عن منابع نهر جيحون: فقد ذكر ابن رسته – أن نهر جيحون ينبع من هضبة التبت الصغرى – باميرا حاليًا – ثم ينحدر نحو المشرق[١٦١]. وقد ذكر كل من الإصطخرى، وابن حوقل روافد نهر جيحون، وهى[١٦٢] كالتالى:

نهر جَرْياب وهو عمود النهر – ينج حاليًا – وكان يصل إلى بذخشان من الشرق، ثم يتجه غربًا فجنوبًا قبل أن يبلغ أطراف مدينة خُلم. وكان لهذا النهر روافد كثيرة منها: أَنْديجاراغ – برتنك حاليًا – ونهر فَارْغر، ونهر أَخْشوَا. ومن اليسار عند مدينة آرهن يصب فى نهر جيحون نهر وخشاب أو نهر الوخش – ويعرف حاليًا بسرخاب ومعناه النهر الأحمر –. وبعد انعطافه حول مدينة بذخشان يستقبل فى يساره نهرى الطايقان وقندز الآتيين من طخارستان – وهما عند بن رسته ختلاب وتراب – ثم يلتقى نهرا القباذيان والصغانيان – عند ابن رسته زامل – بجيحون فى ضفته الشمالية. وتفصل جبال البتم – فى الشمال– مياه نهر جيحون عن مياه نهر زرافشان التى فى الصغد[١٦٣] ثم ينحدر النهر نحو الغرب، ثم الشمال الغربى حتى يصب فى بحر خوارزم – آرال حاليًا[١٦٤].

(١٦٠) دائرة المعارف الإسلامية، مادة جيحون، م١٣، ص١٠٠.
(١٦١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٩١– ٩٣.
(١٦٢) الإصطخرى: المسالك والممالك ص١٦٦، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩٣.
(١٦٣) مجهول: حدود العالم، ص٣٦–٣٧. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٧٩.
(١٦٤) هى: بحيرة كبيرة فى غرب تركستان مالحة نوعًا ما، بلغت مساحتها عام ١٩٤٢م (٦٦,٥٤٨كم٢). منها (٢,٣٤٥كم٢) جزائر، انظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة بحيرة خوارزم، م١، ص٤٢.

ومما هو جدير بالذكر، أن نهر جيحون كان يتجمد فى فصل الشتاء حتى كانت القوافل تعبر عليه ماشية. وربما بلغت طبقة الجليد نحو خمسة أشبار – كما يقول ياقوت الحموى، الذى زار هذه المناطق[١٦٥]. ولدينا شاهد آخر وهو الرحالة ابن فضلان، والذى ذكر فى رحلته أنه أقام بالجرجانية – عاصمة خوارزم – من شدة البرد – شهور رجب وشعبان ورمضان وشوال، وساق لنا قصة ملخصها: أن رجلين ساقا اثنى عشر جملاً ليحملا عليها حطبًا من بعض الغياض، وأنهما باتا من غير إشعال نار، فأصبحا والجمال موتى من شدة البرد[١٦٦]. ويحدثنا القزوينى: أن أهل خوارزم كانوا يحفرون آبارًا بالمعاول فى نهر جيحون يخرقوه للوصول إلى المياه. ويسقون منها، ثم يحملونه فى جرار[١٦٧]. كان الوضع يظل هكذا حتى ينقضى فصل الشتاء، فيتقطع الجليد، ويعود النهر إلى جريانه.

(ب) نهر سَيْحَون:

أطلق العرب على نهر جَكَزْرْتِس Jaxar Tes اسم سيحون، أو نهر الشاش – طشقند حاليًا – نسبة إلى أكبر المدن الواقعة عليه وهى مدينة الشاش.

وأما عن تطور اسم النهر، فبعد الغارة المغولية على هذه البلاد كاد أن يبطل استعمال هذه الاسم، لأنهم أطلقوا عليه اسم كل زريان، ثم تحرف إلى الاسم التركى سيرصو بمعنى نهر سير[١٦٨]، ومن ثم عرف باسم سِيْر دِرْيَا حاليًا.

(١٦٥) ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٢٧٩.
(١٦٦) ابن فضلان: الرحلة إلى بلاد الترك، ص٨٤– ٨٥.
(١٦٧) القزوينى: آثار البلاد، ص٥٢٦.
(١٦٨) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٥١٩.

وأما منابعه فقد ذكر ابن حوقل أن النهر يخرج من بلاد الترك، حيث تجتمع إليه عدة أنهار تأتى إليه من الجبال، ثم يدخل واديى فرغانة ويصير بها نحوًا من مائتى ميل، ثم ينحدر شرقًا ليستقبل أنهار: خرشاب، وأَوْرسِت، وقبا، وجدغل – نرين حاليًا – وأنهار أخرى غيرها. ثم ينعطف شمالاً، فيستقبل نهرى إيلاق، وترك من يمينه، ثم يمر بغرب الشاش، ثم أسفيجاب ثم تتوزع مياهه على أنهار عديدة حتى يصب فى بحر خوارزم[١٦٩] – آرال حاليًا – فى القسم الشمال الشرقى منه.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن نهر سيحون كان يتجمد – هو الآخر – فى فصل الشتاء، ولكن لمدة أطول من نهر جيحون، حيث كانت القوافل تعبره، وكان يُعد «نحو ثلثى جيحون»[١٧٠] على قول ياقوت الحموى.

هذا، فى عُجالة سريعة الأنهار الرئيسة ببلاد ما وراء النهر، وهناك أنهار أخرى – فرعية – تغطى جميع البلاد. وفى الختام، فقد أجمع الرحالة الذين دخلوا بلاد ما وراء النهر على أن: «مياههم أعذب المياه، وأخفها. وقد عمت المياه العذبة جبالها، وضواحيها ومدنها». مما ساعد بلاد ما وراء النهر على أن صارت «من أخصب أقاليم الإسلام، وأنزهها، وأكثرها خيرًا، وأهلها يرجعون إلى رغبة فى الخير»[١٧١].

❑❑❑

(١٦٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤١٩، لسترنج: نفس المرجع، ص٥٢١ .
(١٧٠) ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص١٠٢، والقلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٤٥.
(١٧١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٦١.